البعد اللساني والتغييري للغة العربية

د/ذهبية بورويس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة–

مقدمة:

يفكر الإنسان بلغته ، ويرسم تقاسيمها بفكره، فينتج أصواتها يصوغ بها حسه الإنساني، إنها مسؤولة عنه ومسؤول عنها، قال تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ] [الروم: 22].

«فاختلاف الألسنة سببه القرار بأوطان مختلفة متباعدة، واختلاف الألوان سببه اختلاف الجهات المسكونة من الأرض... وأنَّ ما تقدَمهُ من خلق السموات والأرض تمهيد له وإيماء إلى إنطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السماوات والأرض»[1].

فاللغة إذا آية من آيات الاختلاف الكونية، وهي بذلك من ظواهره المهيئة لتوازنه واعتداله، فالألسنة «لو اتفقت وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولا تعطلت مصالح كثيرة»[2]، فالخصوصيات اللغوية هي التي تجلب التنوع والتكامل إلى مسالك التفكير الإنساني، فتكون هذه الخصوصيات دلائل على قدرة الله تعالى في خلق الإنسان وسعيه الذؤوب في تدبر الكون وإرادة الكشف عنه بمنطوقه وفكره ومردوده، ولا نتصور بأن هذا يتم بعيدا عن اللغة، لأنها تتحرك بتحرك الإنسان، وتحيا بأنفاسه وشعوره الدائم بها، وباجتماعه وتواصله، إنها أول مظهر من مظاهر الاستخلاف في الأرض، فهي «كون منطوق يوازي الكون بأجزائه المنظورة وغير المنظورة»[3]، فالمرء يحمل طاقته وقدرته الذهنية الموجبة والسالبة ، فيما هو مخبوء تحت لسانه وهذا اللسان مرهون بسنن التغيير المنوط بها، يستدعي دائما تكيفه مع أزمنته وطرائقه في تداول اللغة بمقدار شعوره بها.

1–خصوصية بيان اللغة العربية ووقعها القلبي والشعوري:

قال تعالى في محكم تنزيله: [نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ] (195) [الشعراء: 193-195]، حمل اللسان العربي مع مجيء الإسلام معطيات التغيير، بدءا بالبيان الذي جمعت فيه جدلية الفهم والإفهام، والإبلاغ والتبليغ، والأمر والنهي، والجزاء والوعيد، ففاقت طاقته التعبيرية وأساليبها ما كان معهودا من قبل في التواصل اللغوي بين الجماعات والعشائر والقبائل العربية؛ وكان وقع

---

[1]–التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984، ج21، ص73.

[2]–الكشاف، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج3، ص473.

[3]–مختار رسائل جابر بن حيان، عني بتصحيحها ونشرها بول كرواس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1415هـ–1994م، ص 2.

ألفاظه وعباراته المنطوية على معان جديدة تنزل على قلب الإنسان فيؤمن بلفظه دون أن يلتفت إلى أن معناه هو الذي أنعش لفظه قال الفخر الرازي في تفسير الآية« وفي هذا الوجه تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك، تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه، ويفهمه قومك، ولو كان أعجمياً، لكان نازلا على سمعك دون قلبك، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها[4]

هيأ الله سبحانه وتعالى العرب ليؤمنوا بلغتهم وبسموها وبصفائها فأصبح هذا الإيمان جبلّة فيهم واعتقادا راسخا ومكتسبا عن بعضهم ظهر هذا فيما أبدعوه من نصوص شعرية ونثرية ارتجلوها وأنشدوها ورووها، إنها أشعارهم وخطبهم وأمثالهم وعباراتهم كانت تمثل منطلقهم ومآلهم الذي احتموا به على مدى أزمنة كثيرة وما خطر ببالهم أن ما قالوه في تلك الأزمنة سيبقى مستأنسا إلى يومنا هذا.

آمن العرب بقدرة لغتهم فصاغوا بها تجاربهم المحدودة وتجاوزت هذه القدرة مع القرآن الكريم المكان الضيق بأوصافه الجغرافية المحدودة إلى أماكن متسعة ومغايرة لما كان مألوفا أو متخيلا عندهم فاستُحضر ما لم يكن معروفا من وقائع وأحداث و أوصاف وأماكن وكان تجاوز المكان المعهود هو تجاوز الزمان المعهود فانفتحت اللغة على تآلف الإنسان مع الإنسان وعلى تكيفه مع كل مرحلة بمعطياتها وخصوصياتها ومؤدى ذلك هو بيانها، إنه لم يكن ترفاً وإنما كان تغييرا واستشرافا قال ابن فارس:« وصف الله القرآن الكريم بأبلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان وقال جل ثناؤه[خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ][الرحمان: 3-4] فقدم جل ثناؤه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه، وتفرد بإنشائه من شمس، وقمر، ونجم، وشجر، وغير ذلك من الخلائق المحكمة و النشايا المتقنة، فلما خص[جل ثناؤه] اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه...» [5].

ويظهر أن بيان اللغة العربية تابع مباشر لخلق الإنسان فعدّه من دلائل قدرته سبحانه وتعالى خصها بهذا الوصف دون سائر اللغات الأخرى واتحد خلق الإنسان بوظيفتها فالإنسان لا ينكشف بيان لغته إلا في حالة تفكيره وتواصله وتفاعله مع غيره.

يقول مالك بن نبي عن اللغة: إنها« مرتبطة بما تهبه الأرض ببلاغتها الخاصة فطبيعة المكان والسماء والمناخ والحيوان، والنبات هذه كلها خلافة للأفكار، والصور التي تعتبر تراثا خاصا بلغة دون أخرى، وهكذا تضع الأرض طابعها على أدوات البلاغة التي يستخدمها شعب ما بما يعبر عن عبقرية، وبالتالي فإن النقد الذاتي لأي أدب يجب أن يكشف في هذا الأدب إلى حد ما عن علاقته بعناصر التربة التي ولد فيها، وكذلك فيما يتصل بتحليل الأسلوب القرآني فإن هذا التحليل يجب أن يكشف عما يربطه بالتربة العربية... وفضلا عن ذلك فإننا نجد في القرآن صورًا

---

[4]- مفاتيح الغيب، الفخر الزاري، دار الفكر، ط1، 1401هـ-1981م، مج12، ج24، ص 168.

[5]- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة أ. بدران، بيروت، لبنان، ط،1964 -1383، ص40.

ذهنية كثيرة لا تتصل بسماء الجزيرة وبأرضها»[6].

لغة القرآن الكريم هي اللغة العربية التي كان للعرب سنن في توظيفها يجرونها ويتصرفون فيها بطرائقهم ووفق أغراضهم ومطالبهم الآنية هذه اللغة كانت منطوقا مباشرا غير مكتوب فكان هذا المنطوق حيا غير ساكن في بيانه وتعبيره وكان صادقا مرويا غير منتحل يحمل معه الوقع والشعور والأثر والاستجابة وبدت اللغة العربية حينها وهي تنضح بالأغراض والدلالات الجديدة والمستحدثة وجها للحق والحقيقة حتى أن الجاحد والناكر لدلالاتها لم يكن بمقدوره أن يقاوم وقعها في قلبه وشعوره.

فتعبيراتها الفطرية أصبحت منقادة للتفسير والتأويل والفهم والإفهام والتخريج والتوجيه والقياس والسماع وهذا جميعه مردود إلى انشغال علماء العربية بها نحوا وصرفا وصوتا ودلالة.

2- استيعاب اللغة العربية لمبدأ الاختلاف والتعارف:

إذا كنا نؤمن بأن اللغة العربية فاقت غيرها من اللغات الأخرى باتساعها وبيانها[7] فهذا لا يعني أننا نكرس فكرة أفضليتها وخصوصيتها دون حراك أو مبادرة يبقيان على قيمتها، لأن الأفضلية تكمن فيما تتركه اللغة من أثر فاعل محسوس وملموس في حياة الإنسان، لا يمكن فصلها عنه والإنسان لا يفضل غيره إلا بمنجزه الإيجابي الذي ينسحب على الإنسانية جمعاء، فاللغة تقوى بقوة أصحابها وتنمو بنماء طموحاتهم وتستمر بأغراضهم وحاجاتهم وتتنافس باستجابتهم لها وشعورهم الدائم بها فالأفضلية اللغوية لا تستمر مع الأحكام المسبقة الجاهزة وإنما تحظى بذلك في حالة تفعيلها من حيث القيمة والمادة والتنظير والتطبيق يؤكد هذا حال اللغة العربية في أيام نشاطها وازدهارها لقد ارتبطت حينها بأغراض التكليف الموزعة على وظائف لسانية مغيرة في المجتمع مرتكزة على الدعوة والاستجابة والتبليغ والتلقي والإنذار والتبشير و الوعد والوعيد والأمر والامتثال وغيرها وهذه الأغراض التكليفية والاختيارية والتأثيرية لا يمكن أن تكون منفصلة عن جهازها المادي وحاجاتها الروحية وانشغالاتها المعرفية غير المتناهية كانت في ذلك الوقت اللغة تحقق مبدأ التعارف والعالمية بين الأمم والشعوب والثقافات تحت مظلة مركزية اللغة العربية طامحة إلى تقوى الأغراض وإنسانيتها مرهونة في كل مرة بالحذر الملازم لليقظة والمجافي للسكون والخمول والاستكانة قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ] [الحجرات:13]

لقد التفت الفخر الرازي إلى الحس الإنساني الذي يحول دائما للإنسان أن يسعى إلى التغيير والتواصل متجاوزا جنسه فقال عن التفاوت بين الناس والشعوب:« هو تفاوت في الحس لا في الجنس إذ كله من ذكر وأنثى فلا يبقى لذلك عند هذا اعتبار»[8].

---

[6]-الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تج: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط 1969، ص 353-354.

[7]- الصاحبي في فقه اللغة، ص 40.

[8]-مفاتيح الغيب، مج 14، ج12، ص 137.

واعتقد أن ابن جني حينما عرّف اللغة بقوله حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[9]، كان مدركا أن الأغراض هي الباعثة للأصوات وحمولاتها التغيرية والتعبيرية تتسع بها وتتماهى كلما اتسعت هذه الأغراض كان التغيير مرتبطا بالنفس مدفوعا بها مصداقا لقوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ][الرعد:11]. يقول الطاهر ابن عاشور في قوله تعالى:[عَلَّمَهُ الْبَيَانَ][الرحمان: 4] «البيان الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق، وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان»[10].

فالأغراض والمقاصد متغيرة ومتجددة واللغة تكتسب بها حياتها ومركزيتها وهي بذلك تجتاح الأمكنة والأزمنة باجتياحها الفكري والعملي فتتمظهر في التنظير والابتكار والسلوك والأداء.

-الحمولة اللسانية التغيرية ومظاهرها في اللغة العربية:

اللغة العربية متصرفة في منطوقها، ومعانيها كذلك أفعال الإنسان متصرفة في أداءاتها وغايتها، وبذلك فهي لا تختلف عن تصريف الحروف والألفاظ، فأفعال الإنسان وطبائعه تتسع بالإرادات كذلك الحروف والألفاظ تتسع بمعاني صياغتها[11].

ولأن اللغة العربية مرتبطة بمنتوج لفظي ديني مشترك في اليوم بين الناس هو نفسه عند كل العرب المسلمين، فهذا المنتوج له مرجعيته الدينية وله مخزونه التاريخي المتوارث الذي يشكل الطاقة الكامنة التي قد تذهب باللغة بعيدا وهي بهذه الطاقة قادرة على تصور المعاني الكلية والعقلية لأنها تمتلك قوانين صناعة هذه المعاني والتعبير عنها فيُنتظر من هذه الصناعة أن تتحول إلى العلم بالكيفية أي بالإجراء والعمل إذا كانت مسايرة للمنجز المعرفي والمادي الذي يمنحها الاجتياح التعبيري وهي بهذا مؤهلة أكثر من غيرها لتمثل التجديد في كل عصر لأنها في ذاتها علم ثابت محفوظ[12]، لما تركته من أثر عميق في مسيرة الأمم فهي الحدث الذي لم ينقطع لأن عراها توثقت بقيم القرآن الكريم والحديث الشريف وهي بهذا لا تحتاج أن تقوى في ذاتها وإنما حاجتها أن يقوى أصحابها بدوافعهم النفسية وأغراضهم الحياتية وإراداتهم المعرفية.

إن علاقة الإنسان باللغة هي علاقة بين القوة والفعل فإن غابت القوة لم يقع الفعل، لأن الفعل هو الواقع الذي يترجم تلك القوة، ولذلك تعد القوة المستقبل الذي تتحقق به الأفعال ويُفعّل به الواقع والحاضر، فهي إنها تدفع إلى الانجاز فتكون اللغة بها حاضرة مدفوعة بمخزونها وموروثها، عن طريق التحيين و امتلاك إرادة التغيير بها[13].

---

[9]-الخصائص ، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006، ج1، ص33.

[10]-التحرير والتنوير، ج14، ص 287.

[11]-ينظر: مختار رسائل جابر بن حيان، ص 393.

[12]- الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي، السيد الشرقاوي، مؤسسة المختار، ط1، 2002م، ص 52.

[13]-ينظر: مختار رسائل جابر بن حيان، ص7. وينظر: الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي، ص 63.

الحمولات اللسانية في اللغة العربية:

تتوفر في اللغة العربية سنن لسانية حافظت على مرونتها واتساعها واعتدالها، وهذه السنن جرت في اللسان كما جرت السنن الأخرى في الكون، لأنها أنظمة فطرية ضبطها العقل والأداء، ولو كانت تجنح إلى بدائل أخرى غير التي أودعها الله فيها لفقدت سمتها ونظامها وثباتها المتوارث، فاللغة العربية لا يعتورها الخواء والاضطراب لحمولاتها اللسانية المتنوعة هذا التنوع الذي هندس معمارها وأحكم بنائها

1-الحمولة الفكرية المعرفية:

أحدثت اللغة العربية بمقاصدها وأغراضها القرآنية ثورة وتغييرا في المعاني المستهلكة من قبل، فأغدقت هذه الثورة عليها عطاءات وحاجات متجددة لم تكن معهودة وتهيأت للمنجز المعرفي والقيمي بحسن صياغتها للمساءلات واستعدادها القوي للإجابة عنها كان لها ذلك لأنها« أصلح اللغات جمع معان، وإيجاز عبارة وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع»[14].

هي لغة جامعة للمعاني لم تستهجن المستحدث منها وهي أوسع في احتوائها في كل حين فهي التي تكسب اللفظ رونقه وحيويته فإذا امتزجا كانت الدعوة إلى التفكر والتدبر والتنظير، فالعربية قادرة« على تمثل القضايا والأفكار التي احتكت بها بعد أن تمت الفتوحات الإسلامية وقد كان الاحتكاك مع تيارات متباينة، بل ومنها ما كان بطبعه معارضا لأصحاب الفكر العربي عن الموقف الفلسفي والعقدي... ولكن أصحاب اللغة العربية استطاعوا بمهارة رائعة تمثّل الكثير من ذلك الفكر وأضافوا إليه الجديد من إبداعاتهم وما كان يمكن أن تتم هذه المزاوجة المدهشة إلا بفضل الدقة التي عليها العبارات والألفاظ»[15].

لقد تحيرت العرب فيما تسمع من كلام ارتبط بالقرآن الكريم كان هذا الكلام من جنس كلامها ولكنه جاء مباينا له في حمولاته [16]، هذه الحيرة هي نفسها حيرة الوليد بن المغيرة حينما انبهر بالقرآن الكريم مع أنه لم يؤمن به ولكنه آمن بحمولاته ووقعه غير مدرك لسر انبهاره، هي حمولة اللغة العربية القرآنية التي فاقت المعتقدات والتصورات والأداءات فكانت صدمة معرفية إيجابية انطلقت من السمع واستقرت في العقل والقلب، أو هو الإيمان بالتغيير والاستعداد له في كل مرة، لتصبح اللغة الجزء الأكبر الذي وقر في القلب وصدقه العمل؛ وكان تصديق العمل حينها ينشعب عن إرادة الإنسان في التأسيس لعمله ليكون نظاما شاملا لا تعتوره الذاتية والفردية المجحفة، المتأثرة بمعطيات التغيير المادية والشكلية هذا التغيير الذي لا يستقر على حال معتدلة ومتوازنة.

انثبقت العلوم والمعارف مباشرة من القرآن الكريم وكانت كلها تسعى إلى كشف معانيه تفسيرا وتأويلا حركها السؤال المعرفي الإشكالي في التغيير وكانت الإجابة هي المنجز المعرفي المتواصل الذي فزع إليه العلماء، فصاغوا بهذا

---

[14]- التحرير والتنوير، ج13، ص 187.

[15]- اللغة بين العقل والمغامرة، مصطفى مندور، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص 45.

[16]-الظاهرة القرآنية، ص19.

المنجز حضارة لم تنقطع مساءلاتها إلى يومنا هذا فكانت المنطلق والمنتهى و شرف الغاية وإنسانية الغرض، ولا يمكن لهذا المنتهى أن يتحقق دون تفعيل المنطلق ودعمه، لقد بدأ هذا الأمر إجراء وأداء فحملت الظاهرة القرآنية معها الظاهرة اللغوية بكل أجهزتها وتنظيراتها فانشعب من النظر في ألفاظ القرآن الكريم« علم اللغة، ومن إعراب ألفاظه علم النحو ومن وجوه إعرابه، علم القراءات ومن كيفية التصويت بحروفه علم مخارج الحروف، إذ أول أجزاء المعاني التي منها يلتئم النطق هو الصوت، ثم بالتقطيع يصير حرفا، ثم عند جمع الحروف يصير كلمة، ثم عند تعين بعض الحروف المجتمعة يصير لغة عربية، ثم بكيفية تقطيع الحروف يصير معربا، ثم بتعين بعض وجوه الإعراب يصير قراءة منسوبة إلى القراءات السبع، ثم إذا صار كلمة عربية صحيحة معربة، صارت دالة على معنى من المعاني، فتتقاضى للتفسير الظاهر» [17].بدأ الاشتغال بعلوم العربية وعلوم الشريعة متزامنين ، فقراءة القرآن الكريم وحفظه سبقا قوانين ضبطه، ومعايير تلاوته والنظر في أحوال الناس وأوضاعهم والسعي إلى استنباط الحلول النفعية لهم سبق علم الأصول، وحسم الجدل والخلاف وإحداث الإئتلاف المرجعي سبق علم الكلام، وتفسير آيات القرآن وألفاظه سبق المناهج والرسوم الموضوعة لعلوم القرآن.

هذه العلوم وغيرها كانت ترتكز كلها على الأدوات اللسانية واللغوية القائمة على انتحاء طرائق العربية وتتبع أنظمتها لقد استطاعت اللغة « أن تصور ما يخطر في الفكر من معاني، وهي التي تجعل المعاني محفوظة باقية، وكذلك يقول أحد الفلاسفة: الأفكار التي لا توضع في الألفاظ كالشرارات التي لا تبرق لتموت»[18].

حمولة الاعتدال:

الاعتدال سنة من سنن الكونية التي تهيأت للموصوف بها قدرة الاستمرار والتأثير وإحداث التواصل دون أن يجور أو يُجار عليه واللغة العربية لغة فضُلت باعتدالها لفظا وعبارة ومعنى « إذ نجد أكثر ألفاظها قد وضع على ثلاثة أحرف، وأقل من الثلاثي ما وضع على أربعة أحرف وأقل من الرباعي ما وضع على خمسة أحرف وليس في اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصلية، وقد جاءت ألفاظ قليلة جدا على حرف واحد أو حرفين»[19].

فالثلاثي من الكلمات يكون في آلة النطق أمكن وفي اقتصاد الوقت والجهد أوفر وفي الحفظ أقدر وبذلك ينتحى به إلى المتانة والانسجام[20].

وفي الكلم كذلك اعتدال، فهو مقسم على ثلاثة أقسام(الاسم والفعل والحرف) وأي قسم رابع أو خامس أو سادس يضاف إلى الثلاثة فإنه يوقع نظام اللغة في التمحل والاضطراب، وهذا التقسيم الثلاثي للكلم معتدل ثابت استوعب خصوصية النظام الكلامي في اللغة العربية استقراءً، يقول ابن هشام: «الدليل على انحصار أنواعها في هذه

---

[17]-جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1979، ص18-19.19

[18]-دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي، مكتبة دار الفتح، دمشق، ط2 1380هـ-1960م، ص12-13.

[19]- دراسات في العربية وتاريخها، ص 17.

[20]- دراسات في العربية وتاريخها، ص 130.

الثلاثة الاستقراء، فإن علماء هذا الفن تتبعوا كلام العرب فلم يجدوا إلا ثلاثة أنواع، ولو كان ثَم نوع رابع لعثروا على شيء منه»[21].

الكلم كذلك في أحواله وتصرفه معتدل ولا يزيد في جريانه وتصرفه على ثلاثة أوضاع فالاسم منه متمكن أمكن وهو أكثر دورانا في الكلام، والثاني منه متمكن غير أمكن تطلبه الخفة وحسن الصوت وهو(الممنوع من الصرف) يُرد إلى أصله الأول إذا أُمن ثقل الصوت، والثالث منه هو المبني وهو المستقر على حالة واحدة لا يتغير آخر لفظه، ولو تغيرت الألفاظ الطارئة عليه؛ ولعلنا نلاحظ هنا أن أكثر الأسماء غورا في اللغة هي المتغيرة المتصرفة وكأنّ اللغة بمسمياتها قد تهيأت لتحقق بأحوالها ومقاماتها التغيير المطلوب من دلالات الفاعلية ونيابتها، والمفعولية وأنواعها، والنسبة والتبعية وغيرها من المصطلحات التي تحمل الآثار اللغوية التي يحيا بها الإنسان فاعلا ومفعولا ومضافاً ومضافًا إليه وتابعًا ومتبوعًا.

فإذا جئنا إلى الفعل فهو ثلاثة أزمنة لا يمكن أن يزُاد عليها أو يُنقص منها لأن الزمن حقيقة لا تتغير ولا يمكن التغيير فيه إلا أن يكون مرحليا محسوبا بمردوده، وبذلك يكون الفعل هو الماضي وهو الحاضر وهو المستقبل، وكل هذه الأزمنة متحركة ونسبيتها ليست كامنة فيها وإنما مرهونة بأفعال اللغة التي تصوغ الأحداث؛ فالأفعال الناقصة هي أقل استعمالا ثم تأتي بعدها اللازمة ثم تأتي المتعدية إلى مفعول واحد وهي أكثر دورانا، ومعظم التراكيب الفعلية منها، وهي الوسطى المعتدلة بين الأفعال الناقصة والقاصرة والأفعال القوية في تعديها إلى أكثر من مفعول ، وما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل أقل دورانا في الكلام لا تزيد الأفعال فيه على سبعةٍ لأنها فاقدة لحمولة الاعتدال.

أما الحروف فهي جالبة للمعاني لا تعدو أن تكون وظيفتها على ثلاثة أحوال حروف موضوعة للأسماء، وحروف موضوعة للأفعال، وحروف موضوعة لكليهما، وليس هناك قبيل آخر يضاف إلى هذا التوزيع الثلاثي، ولو كان الأمر كذلك لجنحت اللغة وانحرفت عن سنن أنظمتها واعتدالها.

كما أن حركات الاسم المعرب المتغير لا تزيد علامتها على ثلاثة ضم وفتح وكسر وحركات الفعل المتغير المعرب لا تزيد علاماتها على ثلاثة ضم وفتح وسكون هي أصول معتدلة وموضوعة للرفع والنصب والجر في الأسماء موضوعة للرفع والنصب والجزم في الأفعال وما خرج منها عن هذه الثلاثة في الأسماء والأفعال هو عارض لمطالب صوتية تؤمن معنى مقصده وغرضه وتدفع اللبس فيه.

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه الثلاثية التي استُجمعت فيها اللغة بألفاظها وأزمنة أفعالها وأقسام توزيعها وفرت للغة نواميسها النحوية والصرفية والمعجمية والصوتية وعند استنطاق الدلالات والمعاني تتضافر جميعها لتكسبها أسرارها المطلوبة بالكشف والبحث.

الحمولة التركيبية:

اللغة العربية لغة تركيبية تحليلية اشتقاقية وليست مجموعة ألفاظ يأتي بعضها في إثر بعض وإنما هي علاقات قائمة

---

[21]- شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 1418هـ-1997م، ص 32.

بين هذه الألفاظ وهذه العلاقات ليست نمطا واحدا لأنها تتنوع بتنوع الأحوال والمقامات «فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ»[22].

فالملاءمة بين الألفاظ تنبني أساسا على رياضة ذهنية ترسم العلاقات القائمة بين أجزاء الكلم الاسم والفعل والحرف، هذه الأجزاء تتوافق بالقوة الفاعلة في النفس والأغراض هي التي تخرجها لتصبح وسيلة للكشف عن حمولة تركيبية تُفسّر بمقتضيات شتى، هذه الأحوال يستعاض بها عن حركات الإعراب التي ترتكز في غالب الأحيان على ظاهر اللفظ دون النفاذ إلى إدراك الوشائج المعنوية القائمة بين الألفاظ الناسجة للتركيب يقول ابن خلدون«... لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير، وذلك أننا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصية المقاصد، إلا أن البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرف لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال، –ويسمى بساط الحال– محتاجا إلى ما يدل عليه، وكل معنى وإن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يُدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب بحروف أو يدل عليها بالحروف غير المستقلة، ولذلك تتفاوت طبقات الكلمات في اللسان العربية بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات»[23].

فتفاوت طبقات الكلام في اللسان العربي خاصية فيه، أكسبت اللغة التنوع في التعبير عن كل الأحوال والظواهر، وهذه القدرة تجعلها بمنأى عن العجز والتهاون في صياغة المعاني بدقائقها وتفاصيلها فإذا كان المقصد الكلي المستخلص من التركيب متفقا عليه، فإن تفاصيله الجزئية قابلة ليضاف إليها في كل مرة، وهذه الإضافة غير محدودة بحكم تباين الأحوال التي تنضح بها العلاقات الحيوية القائمة بين الألفاظ، ليصير هذا المجموع قطعة كلامية واحدة حاملة تركيبا فنيا فيه معنيان أو أكثر بدلا من معنى واحد، وهذان المعنيان هما المعنى الظاهر المفسر، والمعاني الخفية المؤولة، وبهما يتحقق المجموع المتآلف المنسجم الذي يجافي النمطية والقوالب الصناعية الجاهزة. ويتحرر من المعيارية ليقع في أسر الاتساع اللغوي .

فـ«من يرجع إلى حال نفسه عند إلقاء العبارة يشعر بأنه لا يحرك بها لسانه إلاّ بعد أن يتصور معانيها المفردة، ويضم بعضها إلى بعض بروابط النسب الإسنادية أو التقييدية في ذهنه فيأخذ كل معنى من جهة التقديم والتأخير رتبة في النفس يستحقها بطبعه كالفاعل يخطر في البال قبل المفعول والموصوف يجري على المخيلة قبل صفته؛ وقد

---

[22]– دلائل الإعجاز، عبد القادر الجرجاني، قراءة وتعليق محمود شاكر، شركة القدس، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر القاهرة، ط3، 1413هـ–1992مّ، ص46.

[23]– مقدمة ابن خلدون، ط1، دار القلم ، بيروت، ص 555–556.

يعرض لبعض المعاني حال ينقله عن مرتبته الطبيعية ويعطيه في نفس المتكلم منزلة ثانية كالاهتمام بالمفعول به، يقتضي تقديمه على الفعل» [24].

فأصول التركيب النظامية منويةٌ في الذهن محفوظة بقوانين النحو وأنظمته أما الأصول النظمية في التركيب فلا تعدو أن تكون عوارض تحويلية تلخص طرائق العرب وسمتهم في إنشاء العبارة وإشرابها بيانها بعيدا عن غموض المعنى، وإلاّ كيف نفسر استهجان التقديم والتأخير في باب التوابع وباب الإضافة وباب الصلة والموصول وباب التمييز، فقد أشرت من قبل إلى أن العملية التركيبية في اللغة العربية رياضة ذهنية يمتزج فيها الذوق بالقاعدة وحيوية المعنى بالقوانين المحكمة، و هذا هو الذي أدى إلى تباين مواقف اللغويين في تفسير النصوص وتحليلها وفق الأغراض الكلامية والخصائص اللفظية والصوتية. وهذا التباين حقق للعربية طرائق النظر والتأمل والابتكار والإضافة.

لقد وصف ابن جني هذه الحمولة التركيبية فيما يخص بيان العربية وتصرفها بأنها تمثل شجاعة العربية أي اقتدار اللغة على التصرف لفظا وتركيبا، وهذا الاقتدار يمنحها الاتساع في مواجهة الأحوال المتغيرة بمرونة وطواعية، ترتسم «في تراكيبها وطرائق تأليف جملها وعباراتها من حيث التقديم والتأخير والحذف والزيادة، وهي وإن كانت خروجا عن الأصل في البداية، فقد أصبح جانب واسع منها يُعرف عند اللغويين والنحاة فيما بعد بسنن العربية أو سر العربية[25].

الحمولة الصوتية

حينما قال ابن جني في تعريفه اللغة: «أما حد اللغة فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[26]، ابتعد في تعريفه للغة عن التوصيف والتمثيل وأيقن أنّ اللغة لا تزيد على هذا فمنطلقها الصوت ومنتهاها الأغراض ومؤداها التعبير فإذا كان التعبير متغيرا فإن الصوت ثابت ومحسوس، وإذا كانت الأغراض غير منتهية فإن الأصوات موصوفة ومعينة ومعروفة المخارج، فالصوت هو المصدر الذي تنشأ منه اللغة أو هو المادة الخام التي تنحت رسومها «وقد حافظ العرب على طريقة النطق بها، وأعان على ذلك حفظ القرآن وتجويده وعناية القراء بالحروف ومخارجها وأخذها بالمشافهة لا بالكتابة وحدها، وهذه الميزة واردة بارزة في لغتنا، واضحة في لفظ الحروف، لا تتبدل كما تبدلت اللغة الانجليزية من قديمة إلى حديثة، وكما تبدلت اللغة الفرنسية في القرنين الأخيرين وكذلك اللغة العبرية في تبدل حروفها »[27].

تمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي، سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها

---

[24]–دراسات في العربية وتاريخها، ص 131.

[25]–ظاهرة الاتساع في النحو العربي، حسن محمود شبانة، دار الفتح للدراسات والنشر،.ط1، 1432هـ، 2011، ص 33. وينظر: الخصائص، ابن جني، ج2، ص360-441.

[26]– الخصائص، ج1، ص33.

[27]–اللغة العربية أصل اللغات وذاتيتها وتأثيرها، عبد العزيز عزت الخياط، الدار المتقدمة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2005، ص 24.

وسعتها، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعا عادلا يُحدث التوازن والانسجام بين أصوات الحروف[28]؛ وهذه الأصوات تحمل في جوهرها مخزون الدلالات اللفظية والتركيبية حينما تتآلف رموزها لتتشكل الألفاظ بخصائصها التي تتراوح بين الصفات الثنائية مثل: الشدة والرخاوة الجهر والهمس، الانفجار والسكون، ومنها ما يكون "بين بين" مستوعبا المساحات والمسافات المتخيلة وغير المتخيلة ولعل خصوصية الصوت وحمولته الإيقاعية هو الذي أكسب اللفظ فصاحته وأكسب التركيب بلاغته.

أولى علماء اللغة العربية لأصوات الحروف عناية فائقة وفرت هذه العناية لهذه الحروف رسوما في نطقها وصياغة الألفاظ بها وأصبح المزج بينها يبتكر الدلالة الخاصة التي يحتاجها المتكلم والدليل على ذلك ما جاء به ابن جني حينما مثل للمزج الصوتي بين الحروف، وما ينتجه من أثر في المعنى فعلى سبيل المثال يقول عن تآلف الجيم والراء «ومن ذلك أيضا جَرَ الشيء يجرُه قدموا الجيم لأنه حرف شديد وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعا ثم عقبوا ذلك بالراء، وهو حرف مكرر، وكرروها مع ذلك في نفسها، وذلك الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر، اهتز عليها على ما فيه من التعتعة والقلق، فكانت الراء لما فيه من الكرير، ولأنها أيضا قد كررت في نفسها في (جرّ) (وجررت) أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف وغيرها[29].

وهكذا نقف على حمولة صوتية قادرة على احتواء المعاني المعهودة والمستحدثة مستجيبة للحركة والسكون، فتجميع الصوت الذي انسجم في اللفظ يؤدي إلى انسجامه إيقاعا في التركيب وبه ينشأ النظم الصوتي الذي لا يمكن أن يكون معزولا عن النظم التركيبي فللأصوات موازين وقياسات محتوية لكل صفات الإنسان وأحوال حياته ومطالبه وآماله وأحاسيسه تقع في نفسه موقع الحياة لأن أصوات الحروف هي الإنسان، فعلى سبيل المثال تلتبس أصوات الحروف العربية بمعانيها التي طبعت بها فأنتجت الكلمة واللفظ، فالشين مثلا إذا صوّت به في كلمة «فإنها تدل على شيء منتشر أو ينتشر أو أداة للانتشار أو فعل انتشار مثل شمس، أشعة، نشر، رش، شعلة، شرر، شعر، عشب، شدى...»[30].

فهذا الصوت أخذ معناه من طريقة لفظه أي الطريقة التي يلفظ بها داخل الفم، وهي طريقة نشر الهواء داخل الفم ويطلق هذا الحرف « على كل شيء مادي أو حسي ينتشر ويتشعب وكذلك على الأشياء التي تنشر شيئا أو تبث الانتشار مثل الشمس فهي تنشر الأشعة ومثل الشعلة هي تنشر الشرر...»[31]. فأصوات حروف العربية باعثة حياة الدلالة المعجمية في الألفاظ التي حوتها فمعظم المعاني مشتقة من طريقة لفظ الأصوات ومجموعها تصف الشيء وصفا دقيقا فيُستشعر ويُحس دون معرفة اللغة وقوانينها الموضوعة.

---

[28]-فقه اللغة وخصائص العربية، محمد مبارك، دار الفكر، دمشق، ط7، 1981، ص 250.

[29]-الخصائص، ج2، ص 164.

[30]-معاني الأحرف العربية، إياد الحصني، نشر إياد الحصني، ط1، 2006، ص 17.

[31]-المرجع نفسه، ص 14.

والتصويت بالفاء يشعرنا بدلالة الفراغ أو التفريغ وهذا الصوت مأخوذ من طريقة لفظة وهي تفريغ الهواء من الفم ومن بين الأسنان والشفة، فالنفَس والزفير والنفخ والصفير كل هذا يدل على معنى التفريغ، كذلك كلمات كثيرة تلتبس بهذا المعنى كالصرف والإنفاق والقطف والحفر والفتح والرشف[32] .

وهكذا أصبح كل صوت إشارة إلى معنى اللفظ الذي يحتويه وهو ما يسمى بالتشكيل الصوتي الذي يجمع الدلالة عن طريق مزج الأصوات ببعضها، يقول ابن جني: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجرون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره»[33].

فالحمولة الصوتية في اللغة العربية من أثقل الحمولات لأنها الملونة للغة الإنسان لفكره ومشاعره وأحاسيسه وهذه الحمولة تنسحب كذلك على التراكيب، فصوت حرف الواو الذي نصوغ به الألفاظ نحتاجه في الجمع والتصريف والعطف فيوفر علينا الاقتصاد والجهد لأن صوت هذا الحرف ينتج عن تدافع الهواء في الفم يوحي هذا التدافع بالبعد إلى الأمام فيتأهب هذا الحرف للجمع والإحاطة بالمعنى مرتبطا بوظائفه التشكيلية ولذلك عُدّ من أصوات الحروف التي تتشكل بها الكلمات دون أن تفقد أصول معانيها[34].

إنها التلوينات الصوتية العربية لم تكن بأنفاسها اعتباطية وإنما هي طرائق في الشعور بهذه اللغة وحمولتها الصوتية والتركيبية والجمع بينهما يؤدي إلى تدفق الإحساس والفكر والفطرة لأن اللغة العربية هي صدى الحروف في وجداننا.

فالصوت أول بدايات الإحساس باللغة هو الذي ينتجها ويجعلها تحيا دوما فما بالك إذا كان هذا الصوت عربيا

.

إن البعد اللساني والتغييري للغة العربية فائض وموفور وهو بهذا يجعل هذه اللغة متأهبة دوما للاستثمار والاستجابة لمتغيرات الأزمنة والمراحل، لأنها حظيت بحمولات لسانية امتزجت على مدى أزمنة بمظاهر التغيير الروحي والمادي ، فطاقاتها الصوتية المرنة والمستوعبة لإنشاء الدلالات باستحضار عملية إنشاء الألفاظ والكلمات منفتحة في ذلك على الأمكنة ومتهيئة لاستثمار الأزمنة يجعلها دائما حاضرة أو مستفزة للطاقات الإيجابية عند أصحابها، كما أن حمولاتها الفكرية والمعرفية تجعلها لا تتوانى عن الإسهام في التأسيس للمنظومات المعرفية، لأن المنجز المعرفي فيها لا يمكن أن ينتهي، وحمولتها الكونية بمرجعيتها الدينية القرآنية حققت في هذه اللغة سنن الاعتدال في الاستعمال والتغيير والابتكار، أما طاقاتها التركيبية فقد أنشأت الفكر والتأمل والحكمة بالتراكيب التي تطلب دائما الكشف والتحليل، أما طاقاتها الشعورية والقلبية فهي ذلك التدفق الفكري في حياتها حافظت به على سننها فأقامت بذلك موازينها واعتدالها وهي تتأهب دوما، للتغيير وتحقيق الأغراض التي كانت وما زالت منوطة بها لأنها تمتلك خاصية

---

[32]-المرجع نفسه، ص 19.

[33]-الخصائص، 157/2. وينظر: فصول في علم اللغة العام، محمد علي عبد الكريم، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2007، ص 210.

[34]-ينظر معاني الحروف العربية، ص92-95.

البيان وصفة الكونية والقيم الإنسانية.